الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة 08 ماي 1954 قالمة

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

الملتقى الدولي الأول للفلسفة

الفلسفة و رهانات المجتمع العربي المعاصر

يومي 20 و 21 أفريل 2015

الأستاذ المتدخل: أحمد معط الله

جامعة عباس لغرور –خنشلة-

كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

عنوان المداخلة: إشكالية الهوية و العولمة في الفكر العربي المعاصر ''طه عبد الرحمن نموذجا''

المحور 04: المجتمع العربي المعاصر: الراهن و المستقبل

السنة الجامعية: 2014/2015

إن الصدمة التي هزت العقل العربي في القرن التاسع عشر، كانت قوية نتيجة ما أحدثته من استفاقة، أخرجت المجتمع العربي من سباته الذي دام أمدا طويلا من الزمن، فاكتشف العقل العربي البون الشاسع الذي صار بين المجتمعات العربية و غيرها من المجتمعات الغربية، و كيف انتقلت أوربا نقلة نوعية في شتى المجالات، إن على المستوى الاقتصادي أو الصناعي أو الفكري أو السياسي، هذه الصدمة هزت العقل العربي و جعلته يطرح السؤال الملح ''لماذا تقدمت المجتمعات الأوربية في مقابل تخلفنا؟'' هذا السؤال المركزي كان عاملا حاسما في ظهور الحركات التحررية في المجتمعات العربية التي كان أغلبها يقبع تحت وطأة الاستعمار الأوربي، و تشكل فكر قومي قاوم الاستعمار و ساهم بشكل لافت في استقلال الأقطار العربية و لكن العقل العربي تلقى صدمة جديدة هي ما عرف بالنكسة العربية سنة 1967 و التي بيـنت ضعـف الدول العربيـة و تخلفـها على المستوى الاقتصـادي و الاجتماعي، و الثقافي و التكنـولوجي، و تلا هذه النكسـة ظهور حكومات عربية دكتـاتورية –إن صح التعبير- و أمام هذا الواقع المزري و الصادم صار المجتمع العربي و العقل العربي المعاصر بالتحديد أمام تحديات و رهانات جادة، هذا ما حرك المفكرين العرب لإقامة مشاريع نهضوية، قائمة أساسا على فكر نقدي للواقع قصد بناء مجتمع عربي متطور، اقتصاديا، و اجتماعيا، و سياسيا، في إطار الدولة المدنية الديمقراطية التي تمنح الفرصة للأفكار الحرة للتعبير، و الاعتراف بالآخر و قبول الاختلاف. و في سبيل تحقيق هذه النهضة ظهرت مشاريع فكرية عربية أخذت على عاتقها تحليل الواقع العربي الراهن، و الوقوف عند أسباب التخلف، و تقديم مشروع المجتـمع العربي المعاصر، و تعددت المشاريع النهضوية، و كانـت في أغلبـها مشاريع مستوردة و مستنسخـة و مستعارة من الغرب الأوربي، و كانت إسقاطات لاتجاهات غربية سرعان ما تبين عدم جدواها، كونها لا تتناسب مع المجال التداولي العربي فكان الفشل هو مصيرها، و بقي العقل العربي تائها يبحث عن نفسه و عن طريقه للالتحاق بالركب الحضاري، و صار الأمر أكثر إلحاحا من ذي قبل، حيث أن الفلسفة أصبحت مدعوة أكثر من أي وقت مضى إلى المساهمة في بناء الوعي، و تجديد العقل العربي لمواجهة الرهانات الجديدة التي تواجه المجتمعات العربية، فبعد تصدع المعسكر الشيوعي، و انتصار القوى الليبرالية في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، كان هذا الأمر بمثابة آذان لمرحلة حضارية جديدة، هي الأحادية القطبية، فقد انتصرت القوى الليبرالية في العالم و حاولت بذلك إدخال كل الدول في ركبها و فلكها. فظهرت فكرة العولمة التي كثر الحديث عنها في وقتنا الراهن، و انقسم المفكرون حولها بين مؤيد و معارض. و كثر الجدل خاصة حول علاقتها بالهوية، و قد حاول الكثير من المفكريـن العرب المعاصرين تحليل هذه العلاقـة، و الوقوف عند الحدود الفاصلـة بين هذين المفهومين ''الهوية'' و ''العولمة''، و مدى تأثير العولمة على الهوية، و يعتبر المفكر المغربي المعاصر ''طه عبد الرحمن'' أحد المفكرين العرب الذين درسوا موضوع العولمة و علاقتها بالهوية، و تميزت دراسته بالحس النقدي العالي، و الموضوعية الكبيرة في الطرح، و الإبداع في اقتراح تعديلات على العولمة تجعل منها أكثر إنسانية، و حاول الوقوف عند مساوئ و أخطار العولمة على الهويات الثقافية للشعوب، و لم يكتف بهذا الأمر بل حاول منح الحلول اللازمة للاستفادة من العولمة و ما بصحبها من مظاهر و تفاعلات قد تساهم في تطور المجتمعات العربية. فكيف يمكن للعقل العربي المعاصر حسب طه عبد الرحمن أن يستفيد من العولمة و أن يحافظ على نفسه في نفس الوقت و على خصوصيته و يحصن هويته الثقافية من الاختراق أو الاستلاب؟

و نحن على أعتاب نهضة عربية جديدة تطور التأليف الفلسفي، من عبد الرحمن بدوي و زكي نجيب محمود و فؤاد زكرياء بمصر، و حسين مروة و علي حرب بلبنان، و هشام جعيط و أبي يعرب المرزوقي بتونس، و محمد أركون بالجزائر، و صادق جلال العظم بسوريا، إلى محمد عابد الجابري و طه عبد الرحمن بالمغرب، صار على العرب لزاما وضع تصورات جديدة لنهضة عربية على عتبات حضارة معولمة لها ملامحها و تحدياتها، و تعددت المشاريع النهضوية كما كان الحال عليه في القرن التاسع عشر، و لكن لهذه المرحلة سماتها و خصوصيتها، ذلك أن العالم تطور تطورا هائلا في شتى المجالات، و الخارطة الثقافية و الحضارية العالمية الواحدة تغيرت أيضا، و جرى الحديث عن العولمة و عن القرية الكونية، و الثقافة العالمية الواحدة، فتجلت فكرة الهوية الثقافية و علاقتها بالعولمة، و ما إذا كان الانخراط في العولمة يشكل خطرا على الهوية الثقافية العربية.

و لقد عرف العالم العربي و الإسلامي منذ احتكاكه بالغرب الحديث محاولات عدة للنهوض، اتخذت شكل مشاريع ذهنية عمل أصحابها و لا يزالون على صياغة المسألة صياغة فلسفية تضمر القول بالقدرة على الإحاطة بأسباب تخلف العرب و المسلمين و تقد الغربيين، مع كل مظاهر الاختلاف بين أصحاب مشاريع النهوض ينحصر جهد معظمهم في طلب طريق و آليات النهضة من الغرب، هذا ما حصر العقل العربي في زاوية ضيقة و غرق الكثير من المفكرين في بناء مشاريع نهضوية مستوردة لا هي من مقاسنا و لا هي من ثقافتنا.

و ما يزال الفكر العربي الإسلامي مريدا يسلك طريق الغرب متشوقا إلى بلوغ النهضة، و كلما اعتقد أن وقت النهوض أطل وقع في حفرة، فتعمقت المسافة بينه و بين غاياته، أما آن لهذا الفكر أن يتساءل: هل الطريق المسلوك طريق واصل فعلا؟**(01)**

و لحسن الحظ أخذت بعض الأصوات تعلو خلال السنوات الأخيرة في فضائنا الثقافية العربي و الإسلامي، و ظهرت مشاريع نهضوية جديدة على غرار المشروع الفلسفي لطه عبد الرحمن، الذي أدلى بدلوه في تحليل إشكالية النهضة، و حاول أن يضع طريقا للإبداع الفلسفي العربي و الإسلامي، الذي سيكون حسبه المنطلق لبناء نهضة عربية إسلامية أصيلة، و من بين المواضيع الحساسة و الراهنة التي درسها طه عبد الرحمن علاقة العولمة بالهوية.

إن فكرة العولمة تمتد بجذورها الأولى من خمسة قرون بظهور فكرة الدولة القومية مجل الدولة الإقطاعية، و مع زيادة التقدم أصبحت الدولة لا تستوعب حجم السوق فظهرت الشركات متعددة الجنسيات، و حلت في مجال السوق محل الدولة تدريجيا(**02)،** و يفهم من هذا الأمر أن العولمة كفكرة لها جذورها التاريخية المرتبطة أساسا بمخلفات الثورة الفرنسية و قيام أول جمهورية أرست أسس الدولة المدنية. و يقصد بثقافة العولمة الإطار المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولا من سائر الشعوب، و لا يكون في هذه الحالة في صورة ظاهرة تتمثل في إخضاع عقل هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالي فحسب، بل إعلانا للتكيف من قبل مفكرين إستراتيجيين مخططين لوضع دعامات فكر بعينه ييسر تقبل فكرة الانخراط في حركة الرأسمال و صيرورته كما يحلو للغرب أن يسيره**(03)**. و الكلام في ثقافة العولمة يصعب حصره و لكن يمكننا القول بأن ثقافة العولمة تهدف أساسا إلى تكريس النموذج الغربي الرأسمالي في شتى المجالات بما فيها المجال الثقافي، و ما يلاحظ هنا هو اللعب على وتر الحرية الفردية و حقوق الإنسان و غيرها من الدعوات، و قد تباينت مواقف المفكرين عبر العالم بين مؤيد و معارض للعولمة، و لا شك أن الذين يؤيدون فكرة العولمة و الأخذ بإيجابياتها يستندون إلى أنها أحدثت نقلة نوعية في عالم المعلومات في كل ميادين المعرفة و قربت المسافات و اختصرت الزمن.

إن العولمة بهذا المعنى تشبه القطار، و هو قطار براغماتي يحكم على من يمر به أن يركب، و إلا بقي وحده منفردا لا يحمله شيء إلا حيث يريد، و كأن ذلك الذي يتخلف عن الركب يتحدى المعايير الدولية في سباق العولمة، بل يتحدى ذلك الحلم الرأسمالي، الذي يبدو في العقل الأمريكي نبوءة إنسانية**(04)**. فعلا إن ما يميز ثقافة العولمة هو السرعة، إننا في عصر التكنولوجيا السريعة و الذكية، فحتى في مجال الثقافة فإن الأفكار و المعارف تتوالد بشكل سريع جدا، بحيث يصعب الإلمام بها.

إن العولمة أدت وحدة القيم الثقافية، فمن يقرأ ''همنغواي'' الأمريكي، و ''تشيكوف'' الروسي، و ''طاغور'' الهندي، و ''غونترغراس'' الألماني، و ''برنارد شو'' الأيرلندي، و ''نجيب محفوظ'' المصري، و كلهم أبدعوا في ظل مجتمعات و ظروف مختلفة يدرك على الفور، على الرغم من اختلاف اللغة و الهوية و القومية أنهم اشتركوا في الدفاع عن قيم ثقافة واحدة**(05)،** إن هذه القيم هي القيم الرأسمالية المفعمة بالحداثة و الروح التحررية.

و من المؤكد حسب مؤيدي العولمة أن أبرز المظاهر السياسية للعولمة هو النزوع إلى الديمقراطية. فما لا شك فيه أن ثمة حالة من التطور الديمقراطي على المستوى العالمي، أخذت تجد تطبيقات متعددة لها في الدول المختلفة بما في ذلك بعض دول العالم الثالث**(06)**.

و رغم هذه المزايا للعولمة إلا أن هناك من يعارضها، و يبني المعارضون للعولمة رؤاهم على ما تجلبه العولمة من تغيير في البنية الأساسية لكل مكونات الحياة على المستوى السياسي، و الاقتصادي، و الاجتماعي، و الإعلامي و الثقافي.

و معارضو العولمة لا يرون في العولمة إلا الهجمة الجهنمية للرأسمالية لكي تنهي التاريخ لمصلحتها، إنها هجمة لإبعاد الحضارات الأخرى بكل إنجازاتها العلمية و المادية و الإنسانية، لتفريغ الكون من الحضارات إلا حضارة الرأسمالية الأخيرة، و أول مظاهر العولمة هو عولمة السياسة، بمعنى إخضاع الجميع لسياسة القوى العظمى و القطب الأوحد في العالم و هو الولايات المتحدة الأمريكية**(07).** و لهذا السبب فإن البعض يطلق على العولمة نظام الشوملة أو الأمركة، أي أن يصبح العالم بأسره يسير وفق النهج الأمريكي في شتى المجالات.

و لعل أشد ألوان العولمة خطرا و أبعدها أثرا –كما يرى المعارضون- هو عولمة الثقافة، بمعنى فرض ثقافة أمة على سائر الأمم، أو ثقافة الأمة القوية الغالبة على الأمم الضعيفة المغلوبة، و بعبارة أخرى صريحة، فرض الثقافة الأمريكية على العالم كله**(08)**. و في هذا الصدد يقول الدكتور محمد سمير منيب: '' فالغرب يريد فرض نموذجه و ثقافته و سلوكياته و قيمه و أنماطه و استهلاكه على الآخرين ''**(09)**. إن هذا الأمر يقودنا إلى ضرورة الوقوف عند معنى الهوية و علاقتها بالعولمة، فالهوية مأخوذة من ''هو...هو'' بمعنى أنها جوهر الشيء و حقيقته، لذا يعرفها الجرجاني في كتابه التعريفات بأنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب**(10)**. و بهذا الشكل يتضح بأن معنى الهوية هو ماهية الشيء و حقيقته.

و هوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي جوهرها و حقيقتها، و لما كان في كل شيء من الأشياء –إنسانا أو ثقافة أو حضارة- الثوابت و المتغيرات، فإن هوية الشيء هي ثوابته، التي لا تتجدد و لا تتغير، تتجلى و تفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانتها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة**(11)**. و هوية أية أمم من الأمم هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية، و الهوية دائما جماع ثلاثة عناصر هي: العقيدة التي توفر لصاحبها رؤية محددة للوجود، و اللسان الذي يجري التعبير به، و التراث الثقافي الطويل المدى، الذي يضرب بجذوره في التاريخ، و يمنح صاحبه سمات تميزه عن غيره و تمنحه الخصوصية الثقافية.

و إذا كان مثقفو الغرب و مفكروه أصحاب المواقع الراسخة المؤثرة في الثقافة في العالم المعاصر ينشدون ثقافة بلا حدود تواكب الاتجاه العولمي، و تسايره كما يبدو في الرؤيا الثقافية للغرب، فإنهم في حقيقة الأمر يصنعون مبررات سيطرة الثقافية الغربية بلا حدود، فإن هناك فكرة مناقضة لها يمثلها بعض أصحاب الأفكار المحافظة في دول العالم، و الذين يدعون إلى الحفاظ على مقومات الدولة القومية و الهوية الثقافية.

و تزيد الضغوطات و تتوالى من أجل فرض أسس ثقافية نمطية تستغل دعاوي الديمقراطية، و المكاشفة و حقوق الإنسان إلى غير ذلك من العناصر التي يمكن أن تشكل قواعد صالحة للتطوير و التحوير، لو أنها صيغت في إطار المنظومة الثقافية الوطنية، بينما تعمل أدوات الاتصال و المعلومات جاهدة من أجل غرس قيم و تمجيد ما يعتبر ثقافة جديرة بالاعتبار**(12).**

و يعد المفكر المغربي طه عبد الرحمن من بين المفكرين العرب المعاصرين، الذين كتبوا حول جدلية العلاقة بين الهوية و العولمة، و له رؤيا مبتكرة في هذا المجال تنم عن إيداع فكري عربي أصيل، فطه عبد الرحمن يعتقد بأن العولمة أمر واقع يجب التسليم به لأننا لسنا في موقف يسمح لنا بالمجابهة أو الممانعة، لأن الأمر محسوم، و إن كانت للعولمة سلبياتها، خاصة ما تعلق منها بالمساس بالهوية الثقافية، فإن لها إيجابيات يمكننا استغلالها في بناء نهضة عربية حقيقية، و لهذا يقترح آليات جديدة لجعل العولمة أكثر فائدة، إنها اقتراحات لتهذيب العولمة –على حد تعبيره- و ينطلق طه عبد الرحمن بادئ الأمر في تحديد معنى و مفهوم العولمة، و جذورها التاريخية، ففي تحديده لمفهوم العولمة يؤكد بأنها ليست ظاهرة حضارية جديدة و خاصة أفرزتها مقتضيات الحداثة الغربية، بل هي ظاهرة حضارية ملازمة للتاريخ الإنساني في كليته تتداولها الأمم التي وجهت هذا التاريخ، زيادة أو نقصانا، ففي كل عصر امتد فيه السلطان الحضاري لأمة من الأمم العظيمة**(13)**. فطه عبد الرحمن يمنح العولمة صبغة تاريخية، و كأنها داخلة في الدورات التاريخية للأمم و الشعوب، فهي بهذا المعنى تحمل معنى تداوليا، فكلما ظهرت أمة بالأمم بقوتها و تطورها كحضارة غالبة في زمانها، صحب ذلك نوع من العولمة، أي أن تصبح بقية الحضارات و الأمم المعاصرة لها تجري في فلكها، و تتبع نهجها في شتى المجالات. و يؤكد طه عبد الرحمن بأن هذا الأمر موجود منذ القديم، و يضرب بجذوره في تاريخ الحضارات القديمة لذلك يقول: '' فثمة نوع من العولمة ابتداء من أولى الحضارات الشرقية و انتهاء بالحضارة الغربية''**(14)**، و يرى أن العولمة ليست نتيجة من نتائج التطور و إنما هي أحد محركات التاريخ، و يوضح هذا بقوله: '' يظهر لي أن العولمة ليست نتيجة من نتائج تطور التاريخ الإنساني، أي أثرا من فعل التاريخ، و إنما هي على العكس من ذلك، فعل يحرك التاريخ، و يصنعه صنعا، بحيث يصح عندي أن تقول إن التاريخ يتعولم، فالتعولم هو الفعل الذي يوجد به التاريخ الحضاري، و ليس كما يظن أن التاريخ الحضاري هو الفعل الذي توجد به العولمة''**(15)،** و بهذا الشكل فإن التعولم ظاهرة طبيعية قديمة لها تاريخها الطويل المرتبط بظهور الحضارات. و يقدم طه عبد الرحمن تعريفا مجملا للعولمة فيعتبرها بأنها تعقيل العالم بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات و الأفراد عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث ''سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية''، و ''سيطرة التقنية في حقل العلم'' و '' سيطرة الشبكة في حقل الاتصال''**(16)** و على هذا الأساس يتضح أن العولمة حسبه ليست حالة قائمة بالعالم، و إنما هي فعل مؤثر فيه بكليته، و أثر هذا الفعل هو التوجه نحو توحيد العالم بأكمله فيما يسمى ''القرية الكونية'' أو ''المجتمع الكوني''.

و يؤكد طه عبد الرحمن أن العولمة إجمالا هي عبارة عن التجلي الحاضر لإرادة الإنسان في أن ينتشر في الأرض بحيث يسعى هذا الإنسان إلى أن يحيط بجميع أطراف العالم**(17).** و يبدأ طه عبد الرحمن في تحليله للعولمة من خلال إخضاعها لسؤال القيم متسائلا: هل العولمة باعتبارها تجليا لإرادة الانتشار في العالم بأسره، تلتزم بالقيم بحيث تكون عولمة مهتدية و متسامية؟

إن إرادة الانتشار هذه –العولمة- اقترنت بالنشاط الاقتصادي و التجاري و ارتبطت بالسوق، و لم تكتف إرادة الانتشار هذه بأن تضفي طابع السلعة على أشياء مادية، بل لحق التسليع الخدمات و الشغل و البشر، بل و لحق مختلف دوائر النشاط الإنساني بما فيها الأشياء الروحية، و قطعت إرادة الانتشار شوطا أبعد من ذلك، فجعلت التسليع يجري على المال النقدي نفسه، الذي يفترض له أ ن يكون هو الوسيلة في التعامل، فتحولت العملات من وسيط لتبادل السلع إلى بضاعة يتاجر فيها بحسب تقلبات معدلات الفائدة**(18)**. و هنا يبين طه عبد الرحمن بعض سلبيات العولمة و يحددها في النقاط التالية:

1-الخلو من القيم الفطرية:

فالقيم في معناها العام هي الهادية إلى الخير و المنفعة، و تتميز بسموها و يحملها الإنسان في فطرته، و لكنها رغم ما تحمله من خير و منفعة لا تجد مكانا لها في هذا الانتشار التسليعي و يرجع ذلك إلى أن: ''الأشياء و العلاقات فيه أضحت تقدر بمقابلاتها النقدية حتى و لو كانت أمورا معنوية أو أمورا يجد فيها المرء متسعا لغير هذا التقدير النقدي و الثمن في عرف الأخلاقيين يضاد القيمة، فالشيء القيم لا ثمن له، و الشيء المثمن لا قيمة له''**(19)** فهذا يعني أن العولمة كانتشار تسليعي فقط تخلو من القيم الأخلاقية الفطرية، فكل شيء سواء كان ماديا أو معنويا هو في النهاية مجرد سلعة لها ثمن، فحتى القيمة يتحدثون عنها في مجال الاقتصاد المعولم ما هي إلا قيمة كسبية ظهرت مع الانتشار التسليعي و ليست قيمة فطرية من القيم الإنسانية السامية.

و في هذا المضمار لا يمكن أن تكون العلاقات الكونية التي ينشئها هذا التسلط الاقتصادي في مجال التنمية إلا علاقات المصلحة المادية الخالصة**(20)**.

2-إطلاق العنان لحرية الفرد:

في نظام العولمة يصبح الفرد يقدم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة، و المصلحة العليا التي يعمل من أجلها و يبذل جهده هي حفظ حريته كاملة، و يوضح طه عبد الرحمن هنا الأمر بقوله: ''بحيث ينبغي أن لا تكرهه الدولة و المجتمع على شيء، و أن تزال عن طريقه الحواجز و تمنع التدخلات في تصرفاته، بل ينبغي العمل على توسيع مصالحه حتى تشمل بعض المصالح التي كانت تعود إلى الدولة أو المجتمع''**(21)** فالعولمة بهذا الشكل هي الرأسمالية في أوجها، فالحرية التي تنادي بها العولمة بكونها انتشارا تسليعيا، تهدد استمرارية المجتمع و تزيد من الجشع و الاستغلال فيصبح الفرد غير خاضع إلى أية ضوابط أو قوانين، و هذا ما يعيبه طه عبد الرحمن على العولمة. لهذا يقول: ''و هل نستغرب بعد هذا أن تتفشى هنا و هناك الرشوة و تضعف الهمة، و يقل التضامن، و تذهب المواطنة و تنتشر الجريمة و يكثر الشذوذ''**(22).**

3-إهدار كرامة الإنسان:

يرى طه عبد الرحمن أن الانتشار التسليعي للعولمة يخدش كرامة الإنسان، و يهدرها و لو انتحل من القيم ما انتحل نحو ''الديمقراطية'' و ''السعادة''، فكلما زادت حدة و نطاق الانتشار التسليعي، كلما أهدرت كرامة الإنسان أكثر فأكثر**(23)**. ذلك لأن التسليع و التكريم ضدان، و الكرامة الإنسانية تبنى على القيم، أما في مجال العولمة فإن الكرامة الإنسانية مفقودة، فما يحكم هو الثمن و الكسب و ليس القيم.

4-الاستغراق في الأنانية:

يقول طه عبد الرحمن في هذا الصدد: ''لا يقتصر الانتشار التسليعي على أن يقدم المصالح الاقتصادية للفرد على غيرها، بل كذلك يعمل بكل تصميم و تخطيط على أن يرسخ في نفسه روح التنافس بلا شفقة و حب الربح بلا حد''**(24)** و السبب في ذلك هو أن الذين ينخرطون في هذا الانتشار التسليعي يؤمنون بأن هذا الأمر سوف يبلغ الإنتاج و الاستهلاك إلى أوجه، و هذا الأمر ينعكس على الفرد فيصبح ينظر إلى كل شيء بهذا المنظار، فتتفشى الأنانية و البحث عن الربح بشتى الوسائل.

5-الاستبداد بالقوة:

إن المقصد النهائي لهذا الانتشار التسليعي و المتستر عليه هو تحصيل أسباب القوة و التفوق و بذلك يكون المقصد النهائي لهذا الانتشار هو التسلط الشامل لأقوى الرابحين على الآخرين الخاسرين(**25)** و كأن العولمة وسيلة جديدة من وسائل الاستعمار و الاستبداد الإمبريالي و هذا ما يشكل خطرا على الهويات الثقافية للشعوب.

6-التمسك بالمادية المنسقة:

و يبين طه عبد الرحمن هنا كيف أن الانتشار التسليعي يؤدي إلى إنشاء مادية ليست كسائر الماديات، فهي مادية علمية منسقة يصطلح عليها طه عبد الرحمن بـ ''الإخلاد على الأرض''**(26)**. و لكن هذه الإرادة في الإخلاد ليست إيمانية بل بعيدة تماما عن الإيمان، إنها إرادة علمانية.

و من خلال هذه السلبيات يصل طه عبد الرحمن إلى تعريف للعولمة يقول فيه: ''إن العولمة عبارة عن انتشار تسليعي في العالم يوصل إلى الإخلاد إلى هذا العالم المرئي عن طريق العمل بالقيم التالية و هي: ''الحرية المتسيبة'' و ''التنافس المفترس'' و ''الربح المتوحش'' و ''الأنانية المفرطة'' و ''القوة المستبدة'' و ''المادية المنسقة''**(27)**.

و نتيجة هذه السلبيات التي كانت نتائج منطقية للعولمة، حدثت أزمة أخلاقية و مازال العالم يتردى في أخلاقه، و أصبحت الهويات الوطنية و الأممية عرضة للاختراق و التحوير، و قد لعبت وسائل الإعلام دورا رئيسا في ذلك، و قد تعالت الكثير من الأصوات عبر العالم من أجل الدعوة إلى تهذيب العولمة، و الحد من توجيهاتها المقصودة للمساس بالهويات و محاولة طمسها لتذوب في النموذج الغربي الأمريكي. و يرى طه عبد الرحمن أن الإسلام له الأحقية بدرء آفات و مساوئ و سلبيات العولمة.

و باعتبار الإسلام دينا قائما على القيم الأخلاقية أساسا فإن الأخلاق التي ستسدد طريق العولمة هي أخلاق يجب أن تستوفي على الأقل شروطا ثلاثة هي:

أ- أن تكون مستمدة من خارج هذا النظام، و إلا اقتدر على احتوائها و تحويلها لخدمة مشاريعه.

ب- أن يكون مصدرها أقوى من مصدر هذا النظام، حتى يحصل الانقياد لها، فتتمكن من التأثير فيه و توجيهه إلى خدمة الصالح العام.

جـ- أن تكون أخلاقا كونية، لا محلية، حتى توافق مقتضى هذا النظام الذي هو إيجاد مجتمع كوني واحد**(28).**

إن هذه الشروط حسب طه عبد الرحمن لا تتوفر إلا في الإسلام فهو الحل لإصلاح العولمة التي هي حسبه ظاهرة طبيعية في التاريخ العالمي، و بهذا الشكل فهو لا يرفض العولمة بل يقترح حلولا لإصلاحها و توجيهها للصالح العالمي العام، و أنسنتها كي لا تهدد الخصوصيات الثقافية و لا تغير ملامح الهويات الوطنية و الأممية، و يقدم طه عبد الرحمن الأخلاق الفطرية التي يحملها الدين الإسلامي كحل و كوسيلة لإصلاح العولمة و علاج آفاتها. فالشروط السالفة الذكر تقوم على مبادئ فطرية بمقدورها أن تدفع مفاسد الانتشار التسليعي، و أن تشكل لبنات الانتشار التقويمي في العالم و هذه الأخلاقيات هي:

1-مبدأ الإيمان الفطري:

يدفع هذا المبدأ المفاسد التي تدخل في العلاقة التسليعية التي يقيمها الإنسان مع الطبيعة و ينقلها إلى علاقة تقويمية معها تحفظ مصالحها، فالإنسان مؤتمن على كل مخلوق في العالم كائنا ما كان، فهذا المبدأ ينص لى تحمل المسؤولية تجاه جميع الكائنات، و مبدأ الائتمان يمتاز بكون القيم التي تتفرع عليه هي قيم تزكي السلوك و تستقل بمنطقها و تختلف بعقيدتها، فالقيمة التي تتصدرها هي ''الأمانة''، و المؤتمن عليه هنا هو العالم بأسره**(29)** فهي بهذا الشكل يمكنها أن تقوم و توجه أخلاق الناس، بحيث تصبح نظرتهم إلى خيرات العالم آيات لها اعتبارها لا مجرد موارد يستغلونها.

و يؤكد طه عبد الرحمن أن للأمانة دلالة روحية في نهاية السمو، فالأمانة ليست سلعة أودعها إنسان لدى آخر، إنما هي أسرار عالم المخلوقات كلها، إذ أودعها الخالق سبحانه لدى الإنسان، عارفا بما سيفعل بها، إن حفاظا أو تبديلا، أما أهل حرية السوق فقد هانت المخلوقات عندهم لاستهانتهم بالخالق(30).

2-مبدأ التكريم الفطري:

يدفع هذا المبدأ الثاني المفاسد التي تدخل على العلاقة التسليعية التي يقيمها الإنسان مع الآخرين وينقلها إلى علاقة تقويمية، تحفظ مصالحهم، وهذا المبدأ ينص على احترام الإنسان، فكرامة الفرد متعلقة بإكرامه لغيره، و تكريم الإنسان لأخيه الإنسان من تكريم الله له في عالم الروح**(31).**

و يدخل في هذا المبدأ احترام الآخر الثقافي و تكريمه، و الحرص على عدم المساس بهويته الثقافية.

3- مبدأ التحرر الفطري:

و يدفع هذا المبدأ الثالث المفاسد التي تدخل على العلاقة التسليعية التي يقيمها الإنسان مع نفسه وينقلها إلى علاقة تقويمية تحفظ مصالحه، فالإنسان لم يخلق للتقيد للمال، و إنما للتعبد لرازق المال، فهذا المبدأ ينص على ضرورة تحرر الإنسان من التبعية للمال، و الشغل حسب طه عبد الرحمن ليس مبدأ بل هو عامل وسيلة تساهم في الإنسان من السير في الأرض، و يدعو طه عبد الرحمن إلى استبدال معنى الشغل بمعنى الرزق لأن هذه القيمة تحمل دلالة روحية كبيرة لا نجدها مطلقا في الشغل، ذلك أن الرازق واحد لا ثاني له، و هو قادر على أن يفطر الإنسان على غير هذا الانتشار، فيوجه الإنسان إلى السير في الأرض والارتقاء بروحه إلى عالم أفسح من هذا العالم الذي أصبح يضيق بأهله.

و جملة القول حسب طه عبد الرحمن في علاج العولمة أنه لا سبيل إلى دفع مفاسدها إلا بوضع أخلاقيات قادرة على انتشار التسليعي الذي يخلد بالناس إلى الأرض إلى انتشار تقويمي يرقى بهم إلى اليسر فيها**(32)**.

ويؤكد طه عبد الرحمن أنه لا خوف من الاندماج في التعولم المعاصر، بل نحن مندمجون فيه شئنا أم أبينا ، أو على الأقل أخذنا في الاندماج فيه من حيث ندري أو لا ندري، لأن الإنسان يبقى له سلطان ظاهر على هذا التعولم من جهتين: أحدهما ان يقدر على أن يأتي بقيم نافعة تواجه القيم الضارة التي قد يفرزها هذا التعولم، لأن الأصل في الإنسان أنه آية، ولا يكون آلة في فعل من أفعاله إلا بدليل **(33)**، فالانخراط في النظام المعولم صار أمرا محتوما، ولكن هذا لا يعني الانخراط فيه بكل قيمه، وإنما يمكننا كعرب ومسلمين إضفاء قيمنا الخاصة، و النابعة من هويتنا الثقافية المصبوغة بصبغة الإسلام على العولمة، فهو يتطرق إلى علاقة العولمة بالنهضة العربية الثابتة. فيرى بأن تحقيقها يفرض تعاملا إيجابيا مع العولمة، أي تعاملا مبنيا على الجهد الخلاق والتي تختصر أفكارا عدة مثل الثقة في الذات و العمل الدءوب و النقد و التخيل و المبادرة و الابتكار، و الانطلاق من مكونات الهوية العربية الإسلامية و الانخراط في حركة الحداثة لقيام النهضة الثانية التي لن تستقيم إلا بمقدار ما تأتي تجليا من تجليات حركة الحداثة في التاريخ لكن يشترط: '' أن يكون الدخول في الحداثة ليس دخولا إلى حالة بل دخول إلى حركة، لأن الحداثة اسم لحركة الإتيان بالجديد وفقا لمقتضيات الإبداع و معاييره في كل ميدان من ميادين النشاط الإنساني''**(34)**. و هذا يعني أن الانخراط في الحداثة و حركة العولمة لا يجب أن يكون استسلاما و انبطاحا لها و لكل قيمها، بل يجب أن نكون فعالين في تغيير مسار العولمة و مساهمين في إصلاحها. و هذا ما يؤكده أيضا طه عبد الرحمن. فالطريق العربي للدخول في زمن الكوكبة و العولمة كمشاركين إيجابيين و مبدعين و هو استيعاب المكتسبات الحديثة، و إطلاق نوعي لمشروعات التنمية في شتى المجالات. و يكون المنطلق هو الإرث الثقافي العربي الإسلامي.

و يركز طه عبد الرحمن على ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية، التي تبنى أساسا على الأخلاق الإسلامية، و التي تكون المبدأ الأول للانخراط في العولمة و المساهمة في إصلاح عيوبها لذلك يقول: ''الهوية البشرية لا تتخذ بالعقلانية التي هي جانب واحد من جوانب الوجود البشري، و إنما بالأخلاقية التي تندمج فيها الجوانب بأجمعها''**(35).**

و الوجهة الثانية التي جعلت طه عبد الرحمن يقول بضرورة الانخراط في العولمة و عدم التخوف منها، هو أن التعولم قد يتعثر في الإمساك بزمام أمره فتنقلب عليه خططه و مقاصده لأن الأصل في التعولم فقد الأمن في صنعه، و لا يكون صنعه مأمونا إلا بدليل، فإذن الإنسان المعاصر أقوى من العولمة، إذ يستطيع أن يدفع عنه ضررها أو أن يرفعها من عثراتها**(36)،** و هذا ما يتعين على المفكرين العرب و المسلمين حسب طه عبد الرحمن، أي أن لا يرفضوا العولمة بل أن يعملوا على إصلاح عيوبها و تقديم العلاجات الكفيلة بأن تجعل منها مفيدة للأوطان العربية و يجب أن تكون الحلول و العلاجات التي يقترحونها نابعة من القيم الثقافية العربية الإسلامية، هذا ما يحصن الهوية الثقافية لنا من الاختراق أو الاستلاب، فتكون بمنأى عن الانسلاخ الثقافي و الذوبان في الآخر. فنحافظ على هويتنا و خصوصيتنا، و بذلك نستطيع الاستمرار في التاريخ.

و يؤكد طه عبد الرحمن على ضرورة فتح باب الحوار الفكري بين المفكرين حول العولمة كي تتلاقح أفكارهم تتقادح عقولهم من أجل خلق الإنسان العربي الجديد المؤهل للتعولم الجديد. و يؤكد طه عبد الرحمن أن دور المفكر العربي في قيادة الأمة في هذا الوضع العالمي المستجد سيكون أهم بكثير و أقوى درجات من دور الممارس السياسي، لأن العمل السياسي سيكون محكوما بمقررات العملاق الاقتصادي، حتى أن الحكام العرب لن يبقى لهم إلا تنفيذ التعليمات و الأوامر التي يفرض عليهم فرضا فيكون المنفذ من هذه التبعية القاصمة أو على الأقل المشوش عليها هو المفكر وحده**(37).**

و المحلي لا يتعولم بالإكراه و لا بالتذويب أو الإلغاء إنما يتعولم بالتداول، و من خلال الاعتراف به كعنصر أصيل له خصوصيته و هويته الثقافية كنوع في ثقافة عالمية متنوعة.

**قائمة المصادر و المراجع:**

**(01)**- خالد حاجي، من مضايق الحداثة إلى قضاء الإبداع الإسلامي و العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2005، ص 153.

**(02)**- حميد الجميلي، الشركات متعددة الجنسيات و دورها في الإنتاج الدولي، مجلة أخبار النفط و الصناعة، العدد **401** فيفري، أبو ظبي، 2007، ص2.

**(03)**- السيد أحمد فرح، العولمة و الإسلام و الغرب، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 2004، ص39.

**(04)**- المرجع نفسه، ص 136.

**(05)**- فتحي عبد الفتاح، صناعة الغد بين العلم و الخرافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001، ص41.

**(06)**- فضل الله محمد إسماعيل، العولمة السياسية و انعكاساتها و كيفية التعامل معها، بستان المعرفة، ط1، 1999، ص24.

**(07)**- يوسف القرضاوي، المسلمون و العولمة، دار التوزيع و النشر الإسلامية، القاهرة، 2000، ص21.

**(08)**- المرجع نفسه، ص46.

**(09)**- محمود سمير المنير، العولمة و عالم بلا هوية، دار الكلمة، المنصورة، مصر، ط1، 2000، ص129.

**(10)**- الجرجاني، التعريفات، دار عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987، ص314.

**(11)**- محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار النهضة، مصر، ط1، 1999، ص1.

**(12)**- عبد الباسط عبد المعطي، العولمة و التحولات المجتمعية في الوطن العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1999، ص93.

**(13)**- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، دار الهادي، بيروت، ط1، 2003، ص153.

**(14)**- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

**(15)**- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

**(16)**- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل غلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط1، 2006، ص78.

**(17)**- طه عبد الرحمن، سؤال العمل، بحث عن الأصول العملية في الفكر و العلم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط1، 2012، ص209

**(18)**- المصدر نفسه، ص210

**(19)**- المصدر نفسه، ص211.

**(20**)- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص80.

**(21**)- طه عبد الرحمن، سؤال العمل، ص ص 211،212.

**(22)**- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص80.

**(23)**- طه عبد الرحمن، سؤال العمل، ص211.

**(24)**- المصدر نفسه، ص212.

**(25)**- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

**(26)**- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

**(27)**- المصدر نفسه، ص213.

**(28)**- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص86.

**(29)**- طه عبد الرحمن، سؤال العمل، ص ص 220، 221.

**(30)**- المصدر نفسه، ص221.

**(31)**- المصدر نفسه، ص ص 222، 223.

**(32)**- المصدر نفسه، ص224.

**(33**)- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، ص155.

**(34)**- ناصيف نصار، باب الحرية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003،ص 36.

**(35)**- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-لبنان، ط1، 2002، ص189.

**(36)**- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، ص156.

**(37)**- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

**الملتقىالدولي الأول حول:**

**الفلسفة و رهانات المجتمع العربي المعاصر**  
**يومي 26 و27أفريل 2015**

**بطاقة المشاركة**

الاسم:........أحمد.....اللقب:.معط الله.........

الوظيفة:....أستاذ...الرتبة:.أستاذ....المؤسسة:...جامعة عباس لغرور خنشلة

الهاتف:..0660858143..... البريد الإلكتروني:. ahmed.maatallah@yahoo.com.....

عنوان المداخلة:..إشكالية الهوية والعولمة في الفكر العربي المعاصر"طه عبد الرحمن نموذجا"...

المحور:..المجتمع العربي المعاصر الراهن والمستقبل.

**ملخص المداخلة**

إن الصدمة التي هزت العقل العربي في القرن التاسع عشر اكتشف خلالها العقل العربي البون الشاسع بينه وبين الآخر الأوروبي هذه الصدمة جعلته يتساءل عن سبب تقدم الآخر وتخلفه فظهرت نتيجة ذلك حركات تحررية وتزامنا معها تشكل فكر قومي قاوم الاستعمار واستقلت كل الدول العربية ولكن العقل العربي تلقى صدمة جديدة هي ما عرف بالنكسة العربية سنة1967 والتي بينت هي الأخرى ضعف الدول العربية في شتى المجالات وتلا هذه النكسة ظهور حكومات عربية ديكتاتورية فصار العقل العربي المعاصر أمام تحديات ورهانات جادة ،هذا ما حرك المفكرين العرب لإقامة مشاريع نهضوية ،قائمة أساسا على فكر نقدي للواقع قصد بناء مجتمع عربي متطور ولكن كانت أغلبها مشاريع مقلدة ومستوردة لا تتناسب مع مجالنا التداولي وكانت إسقاطات لاتجاهات غربية سرعان ما تبين عدم جدواها فكان الفشل مصيرها وبقي العقل العربي تائها يبحث عن نفسه وعن طريقة للالتحاق بالركب الحضاري وصار الأمر أكثر إلحاحا من ذي قبل ،وأصبحت الفلسفة مدعوة أكثر من أي وقت مضى إلى المساهمة في بناء الوعي خاصة بعد نهاية الحرب الباردة وانتصار القوى الليبرالية في العالم والتوجه نحو العولمة ، التي كثر الجدل حولها وعن خطرها على الهوية الثقافية والوطنية للشعوب والأمم ، و يعتبر المفكر المغربي المعاصر ''طه عبد الرحمن'' أحد المفكرين العرب الذين درسوا موضوع العولمة و علاقتها بالهوية، و تميزت دراسته بالحس النقدي العالي، و الموضوعية الكبيرة في الطرح، و الإبداع في اقتراح تعديلات على العولمة تجعل منها أكثر إنسانية، و حاول الوقوف عند مساوئ و أخطار العولمة على الهويات الثقافية للشعوب، و لم يكتف بهذا الأمر بل حاول منح الحلول اللازمة للاستفادة من العولمة و ما يصاحبها من مظاهر و تفاعلات قد تساهم في تطور. المجتمعات العربية. فكيف يمكن للعقل العربي المعاصر حسب طه عبد الرحمن أن يستفيد من العولمة و أن يحافظ على نفسه في نفس الوقت و على خصوصيته و يحصن هويته الثقافية من الاختراق أو الاستلاب؟